+ آباؤنا القدّيسون

القديس يوحنا كاسيانوس

تُعيِّد الكنيسة الجامعة في التاسع والعشرين من شباط لتذكار القديس البار يوحنا كاسيانوس الذي اختبر حياة النسك في الشرق، ونقل هذه الخبرة الشرقية إلى الغرب حيث أسّس الأديار، حتى اعتبره الغرب من كبار المعلّمين.

ولد القديس كاسيانوس في أواسط القرن الرابع في مدينة سكيثيا الواقعة على مصب الدانوب والتي تُعرف حالياً بـ"دوبرودغيا" الرومانية. زرع والداه محبة الله في قلبه منذ نعومة أظفاره، إضافة إلى تحصيله علوم الدنيا. لم تغره أمجاد هذا العالم بل كان دائم السعي إلى الكمال بالرب يسوع.

انتقل مع صديق له يدعى جرمانوس إلى أحد أديار بيت لحم حيث تدرّب على حياة الشركة والفضائل، وكان يذرف الدموع باستمرار على خطاياه.

عندما سمع بأخبار نسَّاك برية مصر طلب البركة، مع رفيقه جرمانوس، من رئيس الدير، لكي يذهبا إلى هناك، فأعطاهما الإذن شرط العودة إلى الدير لاحقاً.

ذهب كاسيانوس ورفيقه إلى أديار دلتا النيل، ثم قررا الدخول إلى عمق الصحراء رغبة في مجالسة النسّاك القديسين اللامعين وطلباً للمنفعة والبَرَكة وتعلّم أصول الحياة الروحية. هناك التقيا الأنبا يوسف الذي نصحهما بالبقاء فترة أطول في صحراء مصر للاستفادة الأكبر. بقيا هناك مدة سبع سنوات التقيا خلالها عدداً من كبار القديسين الرهبان كالأنبا موسى وسيرابيون وبفنوتيوس. إضافة إلى حياة الصلاة والصوم والعمل اليدوي الشاق، اختبرا هناك الفقر الكلّي والعري. كما أنهما كانا يتعرّضان دائماً لهجمات الشرير الذي كان يحاول إقناعهما بالعودة إلى بيت لحم والتخلّي عن عذاب الصحراء. إلا أنهما وعيا "أنه لا يكفي الراهب أن يزهد في العالم مادياً ويتخلّى عن مقتنياته ليُقبل على النسك والصمت، بل عليه أيضاً أن يتخلّى عن عاداته السالفة وأهوائه. وهذا يحتاج إلى جهاد طويل يعرّضه لفخاخ كثيرة إذا نجا منها أوصله جهاده إلى نقاوة القلب. هذا هو هدف الراهب: أن يدخل، بلا انقطاع، في عشرة الله، بالصلاة المستمرة التي يرفعها الذهن المُعتَق من هموم العالم بسكينة وسلام في الهيكل المنقى للقلب".

بقي الصديقان في البرية سبع سنوات يختبران الجهاد ضد الأهواء ويعاينان أمثلة القداسة الحيَّة بين النسّاك، عادا بعدها إلى دير بيت لحم عام ٣٩٧، ليستحصلا من رئيس الدير على بركته من أجل العودة والإقامة الدائمة في الصحراء، وقصدا مصر عام ٤٠٠.

لم يمضِ زمن طويل حتى بدأ جهاد من نوع آخر. فقد اتهم البطريرك ثيوفيلوس الإسكندري الرهبان باتباع أوريجنس ونظَّم حملة ضدّهم ممّا دفع البعض إلى الهرب. التجأ كاسيانوس مع رفيقه جرمانوس وعدد من الرهبان إلى القسطنطينية حيث استقبلهم القديس يوحنا الذهبي الفم، بطريرك المدينة. عرف الذهبي الفم معدن كاسيانوس

+ آباؤنا القدّيسون

ورفيقه، فشرطن جرمانوس كاهناً وكاسيانوس شماساً وحارساً لخزنة الكنيسة العظمى وأوانيها المقدّسة. وعندما حصل الاضطهاد على الذهبي الفم ونفي بسبب ثيوفيلوس الإسكندري، أرسل أهل القسطنطينية كاسيانوس وجرمانوس إلى روما لشرح القضية الظالمة أمام البابا اينوكنديوس الأول.

بقي كاسيانوس في روما عشر سنوات قَبِل خلالها الدرجة الكهنوتية، ثم انتقل إلى مرسيليا (فرنسا) حيث عمل على تأسيس الأديار، فأسّس دير القديس فيكتور للذكور، عند ضريح شهيد من القرن الثالث، ودير المخلّص للنساء، وبثّ فيهما الروح الرهبانية الشرقية محاولاً أن تتوافق هذه التعاليم مع شروط الحياة هناك وطبيعة المناخ. كذلك وضع عدداً من المؤلفات النسكية والرهبانية والروحية لمنفعة الاخوة هناك.

لم يتخلَّ كاسيانوس عن تعاليم آباء الشرق العقائدية فوقف في وجه أوغسطينوس المغبوط (من آباء الغرب) الذي بالغ في الفصل بين الطبيعة البشرية والنعمة الإلهية مشدّداً على كون الإنسان يتألّه بالنعمة الإلهية دون التشديد على مجهود الإنسان الشخصي. أما كاسيانوس فعلّم أن الحرية البشرية المخلوقة على صورة حرية الله المطلقة، والمتجددة بالمعمودية، مدعوة لأن تستجيب للنعمة الإلهية وتتعاون معها لكي تنشئ في النفس الثمار الخلاصية. اتّهمه أتباع أوغسطينوس بالانحراف فكان ردّه الصمت و لم يسعَ لتبرير نفسه. وأخيراً رقد بسلام عام ٤٣٥.

يُكرّم هذا القديس في الشرق والغرب على السواء، وما زالت رفاته المقدسة الموجودة في دير القديس فيكتور في مرسيليا مصدر بركة لكثيرين. فبشفاعته اللّهم ارحمنا وخلّصنا آمين.